المجلة العربية، جامعة داكا

المجلد الثامن عشر، يونيو ٢٠١٧ م

الموشحات المشرقية في العصر الأيوبي وخصائصها الموضوعية

د. محمد ميزان الرحمن *

Abstract

This is a study of a distinct form of Arabic poetry of the Ayyubid period (founded by Salahuddin Al-Ayyubi and centered in Egypt), which is known as 'Muwwashshahat', which appeared in medieval Spain, in the period from 3rd to 7th centuries A.H / 9th to 13th centuries AD. It expanded to the East in the beginning of 6th century A.H. The paper contains the historical background, meaning, origin and subject matters of 'Muwwashshahat' of Ayyubid period with a special reference to its main contributors. The most important subject matters of this genre were; Al-Gazl, Al-Wasf, Al-Gina`, Al-Khamr, Al-Madh, Al-Rasa`, Al-Juhd, Al-Hanin, Wasf Al-Tabi`yah, Al-Hamasah, Al-Tsawwuf etc. The article highlights the role played by the Arabic poets of 'Muwwashshahat' in Ayyubid dynasty and describes some salient elements of intercultural communication between the East and the West. The intention of this paper is to provide an overview on the topics of Ayyubid Muwwashshahat for the benefits of the enthusiasts of Arabic literature.

المقدمة

تعد الموشحات أحد الأشكال الفنية التجديدية التي جاء اسمها بالبيئة الأندلسية. وكانت هذه نتيجة ثورة تجديدية في العصر العباسي. وذاع هذا الفن وانتشر في بلاد الأندلس أولا، ثم انتقل إلى بلاد المشرق في القرن السادس الهجري مع الوافدين من الأندلس. وبعد ذلك جود به الوشاحون من المشرق وطوروا في بنائه، خاصة في العصر الأيوبي تعتبر الموشحات

* أستاذ مشارك، قسم العربية، جامعة داكا

المشرقية تطويرا في جانب من جوانب فن الشعر وأحد الأشكال الفنية البارعة. ولها أهمية كبيرة في ميدان الشعر العربي. ونجد في الموشحات المشرقية في العصر الأيوبي جوانب كثيرة من الجودة والتطوير والتجديد. مع ذلك كان بعضها ضعيفة المعاني، مهلهلة النسيج من حيث بنائها وطبيعتها. ولكن أكثرها كانت مشهورة إلى حد كبير. وسار بعض الوشاحين فيها على النهج الأندلسي الخالص متبعين فيها كل ما تتطلبه الموشحات الأندلسية، وبعضهم لم يلتزموا ببعض الشروط عن بناء الموشحة، بل أظهروا فيها الأثر المشرقي عامة والمصري خاصة في موشحاتهم. هكذا جاء في الموشحات المشرقية الأيوبية أكثر موضوعات الشعر العربي – مثل الغزل، ووصف مجالس اللهو والطرب، والخمر، والمدح والتهنئة، والرثاء، والزهد، والحنين، والحماسة، ووصف الطبيعة والتصوف وغيرها.

مفهوم الموشح

موشح فن شعري مستحدث، يختلف عن ضروب الشعر الغنائي العربي. وذلك بالتزامه بقواعد معينة في التقنية وباستعماله اللغة الدارجة أو الأعجمية في خرجته، ثم باتصاله القوي بالغناء. وإن الموشحات الشعرية إنما سميت بذلك لأن تعدد قوافيها على نظام خاص جعل لها جرساً موسيقياً لذيذاً ونغماً حلواً تتقبله الأسماع، وترتاح له النفوس، وقد قامت القوافي فيها مقام الترصيع بالجواهر واللآلئ في الوشح. فلذلك أطلق عليها "الموشحات" أي الأشعار المزينة بالقوافي والأجزاء الخاصة. ولا نجد تعريفا شاملا للموشح، بل اختلف الأدباء والشعراء والباحثون في تعريفه. فقيل– موشح أو موشحة أو توشيح، وتجمع على موشحات أو تواشيح من وشح بمعنى زين أو حسن أو رصع. يقول صاحب لسان العرب نقلاً عن الجوهري في صحاحه "الوشاح يُنسج من أديمٍ عريض ويُرصّع بالجواهر، وتشده المرأة بين عاتقيها وكشحيها".[١]

وقال الأديب الكبير والوشاح المشرقي المشهور ابن سناء الملك (٤٥٤–٦٠٨ هـ) في تعريف الموشح: "الموشح كلام منظوم على وزن مخصوص".[٢]

وقال أبن خلدون (تولد سنة ١٣٨٨م) "وأما أهل الأندلس فلما كثر الشعر في قطرهم، وتهذبت مناحيه وفنونه، وبلغ التنسيق الغاية استحدث المتأخرون منهم فنا سموه الموشح ينظمونه أسماطا اسماطا، أغصانا أغصانا، يكثرون من اعاريضها المختلفة، ويسمون المتعدد منها بيتا واحدا ويلتزمون عند قوافي تلك الأغصان".[٣]

وقال ابن دحية : "الموشحات هي زبدة الشعر ونخبته، وخلاصته وجوهره وصفوته، وهي من الفنون التي أغربت بها أهل المغرب على أهل المشرق وظهروا فيها كالشمس الطالعة والضياء المشرق."[٤]

وقال المقري في نفح الطيب : "وأما أهل الأندلس فلما كثر الشعر في قطرهم ، وتهذبت مناحيه وفنونه، وبلغ التنميق فيه الغاية استحدث المتأخرون منهم فنا سموه بالموشح".[٥]

وبالخلاصة نستطيع أن نقول : إن الموشحات هي فن جديد من فنون الشعر العربي التي شاعت أولا في أقطار الأندلس. وهي لقيت إعجابا من جملة الخاصة والكافة لسهولة تناولها وقرب طريقتها. ويتكون الموشح عادة من ثلاثة أقسام. وقد تتعدد أجزاء الموشح لتضم أكثر من مقطع لكل منها شكل وترتيب وتتخذ تسميات مثل المذهب، الغصن، البيت، البدن، القفل، الخرجة.[٦] ويقول ابن سناء الملك– "الموشح يتألف في الأكثر من ستة أقفال وخمسة أبيات ويُقال له التام، وفي الأقل من خمسة أقفال وخمسة أبيات ويُقال له الأقرع، فالتام ما ابتدئ فيه بالأقفال، والأقرع ما ابتدئ فيه بالأبيات".[٧]

مسيرة الموشحات من المغرب إلى المشرق

كانت هناك صلة أدبية بين المشرق والمغرب. رحل كثير من الناس من المشرق إلي المغرب كذلك من المغرب إلى المشرق. وكانت رحلات من المغرب إلى المشرق لأسباب كثيرة، منها– البحث للرزق، أو كسب العلم والمعرفة، أو طلب الأمن والسلامة، أو شراء الكتب، أو

طلب الإجازات على يد أعلام في المشرق، أو طلب المعلومات لتأليف الكتب وغير ذلك. لهذا كان ينتقل الفن الأدبي الجديد من بقعة المغرب إلى بقعة المشرق ومن بقعة المشرق إلى بقعة المغرب. هكذا انتقلت الموشحات من المغرب حتى وصلت إلى أرض المشرق في زمان ما بين أواخر القرن الخامس الهجري وأوائل القرن السادس الهجري.[٨] وأولا انتقلت الموشحات من المغرب إلى المشرق على يد أبي الصلت أمية بن عبد العزيز(ت٥٢٩هـ).[٩] وهو كان أديبا في الأندلس، ثم رحل إلى مصر وعاش فيها في أواخر القرن الخامس الهجري وأوائل القرن السادس الهجري. وأول من نظم الموشحة من أهل الشرق هو الشاعر علي بن عياد الإسكندري (تـ ٥٢٦هـ). ثم تلاه الشاعر ظافر الحداد الإسكندري(تـ٥٢٩هـ). وبيد هذين الوشاحين بدأت الموشحات تشكل تشكيلا فنيا في المشرق. ويرجع انتشار الموشحات فى مصر والشام فى القرن السادس الهجرى، الثانى عشر الميلادى، إلى ابن سناء الملك المصرى المتوفى عام ٦٠٨هـ / ١٢١٢م والذى هوى الموشحات وأبدع منها، وألف فيها كتاب "دار الطراز في عمل الموشحات". ثم صبغت الموشحة بصبغات خاصة وتأثرت بفنون البلاد المشرقية مثل مصر والشام والمغرب العربي. امتاز فنانو الشام بحرصهم على جمع ألوان الفنون وتدوينها وحفظها حتى غير العربى منها، وشملوا ذلك الموشحات الأندلسية. واستفاد من هذه الخاصية فنانون كثيرون الذين حفظوا الموشحات ونقلوها إلى أجيال بعدهم في الشام وغيرها. وأعجب المصريون بفن الموشحات وكثر حفظتها، وكانوا يقدمونها في الحفلات والمناسبات الاجتماعية الشعبية في فرق عرفت باسم الصهبجية.[١٠] وهم الذين تعلم على أيديهم العديد من الأجيال اللاحقة من الفنانين. وفي المغرب نشات فرق خاصة تعنى بالموشحات التى استمدت كلماتها من الأشعار الصوفية وقدمت عروضها في المناسبات الدينية بمصاحبة الآلات الشرقية التقليدية ووجدت لها جمهورا خاصا من الذواقة وعشاق هذا الفن.

التاريخ السياسي للعصر الأيوبي

في بداية القرن الخامس الهجري ظهر السلاجقة[١١] في الأفق الذين كانو وثنيين، ثم أسلموا ونصروا الإسلام بقوتهم، حتى أعادوا للإسلام أمجاده المفقودة. وكان لهم جيش كبير وقوي في عهد سلاطينهم الأوائل. لكن يوما بعد يوم أصبحوا ضعفاء لتشتت أركان دولتهم. وأخذ الصليبيون[١٢]هذه الفرصة لتمزق الدولة الإسلامية. وفتح الصليبيون بيت المقدس سنة ٤٩٣هـ، واتحدت أوروبا على قتال المسلمين. وبالعكس أصبحت دولة السلاجقة ضعيفة وممزقة، كما كان حال الدولة الفاطمية في مصر. في ذلك الوقت تولى عماد الدين زنكي (ت ٥٤١هـ) أمور الخلافة في الموصل وحلب الذي حاول أن يضم شمال العراق بشمال الشام. ثم حاول أن يصد تيارهم للجهاد ضد الصليبيين. لكن الصليبيين قتلوه بالخداع. ثم تولى الأمور ابنه نور الدين محمود الذي جمع جيشا كبيرا للجهاد ضد الصليبيين. وهو استطاع أن يستولي على مصر بقيادة أسد الدين شيركوه، وجعله وزيرا له. وبعد موت شيركوه عين نور الدين صلاح الدين الأيوبي[١٣] لمكان شيركوه. وكان الأيوبي ابن أخيه. في سنة ٥٧٦هـ أرسل نور الدين قائده الجديد القوي الشجاع صلاح الدين الأيوبي إلى مصر أن يلغي الخلافة الفاطمية في مصر. ففعل أمره وجعل مصر تحت رعاية الخلافة العباسية. وكان مركز الخلافة العباسية في ذلك الوقت في بغداد ومركز الدولة الزنكية في بلاد الشام. ثم عين صلاح الدين واليا على مصر. وظل وليا إلى أن مات نور الدين. بعد ذلك أسس صلاح الدين دولة إسلامية أيوبية قوية في مصر وأعلن استقلاله. ثم نظر إلى بلاد الشام واستولى على عرشها. ثم جمع حوله جيشا كبيرا لحرب الصليبيين. فوقعت حوادث كثيرة بينه وبين الصليبيين. وأكبرها وقعت في سنة ٥٨٣هـ ، ففاز صلاح الدين وجيوشه في هذه المعركة المهمة. وانتهت المعركة بانهجام جيوش الصليبيين.

في عهد صلاح الدين أصبحت الدولية الأيوبية دولة قوية بتقوية جيشه. وكان الصليبيون يخافون قوة الإسلام تحت رعاية صلاح الدين. ولكن بعد موته سنة ٥٨٩هـ ضعفت الدولة

الأيوبية لسبب تجزؤ الدولة الإسلامية. في هذه الفرصة عاد الصليبيون إلى الحملة على الدولة الإسلامية. فأرسلوا حملة على مصر التي استولت على دمياط سنة ٦١٨هـ. ولكن طرد الحملة الملك الكامل في نفس السنة بمساعدة الدولة السورية. وبعد موت الملك الكامل تولى الحكم الملك الصالح. ودارت كثير من المعارك بين جيوش الصليبيين بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا وجيوش المسلمين بقيادة الملك الصالح. وتوفي الملك الصالح لمرضه في أثناء تلك المعارك. فأخفت زوجته شجرة الدر نبأ وفاته عن الناس جميعا. وهبت مسرعة لتدبير أمر الحرب وقيادة الجيش باسم زوجها. وانتهت هذه المعارك بهزيمة الصليبيين. فاصبحت شجرة الدر سلطانة بدلا من زوجها سنة ٦٤٨هـ. وهكذا انتقل الحكم في مصر من يد الأيوبيين إلى يد المماليك.

ومن خلال تلك الحوادث تأثرت الحياة الثقافية والعلمية بتأثير الحروب والمآسي، فنمت بعض العلوم. خاصة بدأ المسلمون أن يتمسكوا بالعلوم الدينية لما فيها من التشجيعات على طريق الجهاد والتأثيرات في القلوب. لهذا نرى كثيرا من المدارس والخانقاويات والعمائر والبيمارستانات[١٤] أسست في ذلك العصر. ومن خلال هذه الحروب كانت الروابط الاجتماعية بين المسلمين والصليبيين قوية جدا التي ويختلط فيها المسلمون والفرنجة. وفي حين تأثر كثير من اللّيبيين بأصول المجتمع الإسلامي وتقاليده وبصفات المسلمين الأخلاقية الحسنة.[١٥]

تطور الموشحات المشرقية في العصر الأيوبي والوشاحون البارزون فيه

في بداية العصر الأيوبي ظهرت الموشحات إلى الوجود في المشرق وانتشرت. لأن قبل ذلك قد وصلت الموشحات إلى مرحلة معقولة من النضج بأيدي بعض الوشاحين مثل– علي بن عياد الإسكندري (ت ٥٢٦هـ) وظافر الحداد الإسكندري (ت ٥٤١ هـ) ومسلم بن الخضر (ت٥٤١ هـ) وابن قلاقس (ت ٥٦٧هـ).[١٦] وكانت أوائل الموشحات ضعيفة، حتى بعضها لم يصل إلى درجة فن التوشيح. وظهرت في بعضها التقاليد الواضحة لما سبقتهم من

الموشحات الأندلسية. وأحيانا هي كانت خالية من عناصر الأدب. كما نرى هذا الضعف في موشحة ابن عياد الإسكندرى التي مدح بها محمد بن أبي أسامة.[١٧] ونرى هذا الحال في موشحات ابن قلاقس أيضا. وجاءت الموشحات إلى الظهور الحقيقي في العصر الأيوبي بيد الوشاح عبد الله بن أسعد بن علي الملقب بابن الدهان الموصلي (٥٢١-٥٨١هـ). هو شاعر ولد في الموصل، وأقام مدة بمصر ثم انتقل إلى الشام. فولي التدريس بحمص وتوفي بها. قال فيه ابن خلكان- كان فقيهاً فاضلاً أديباً شاعراً لطيف الشعر مليح السبك حسن المقاصد غلب عليه الشعر واشتهر به. ولديوانه أهمية تاريخية أدبية. أما التاريخية: حيث كانت في عصره الحروب الصليبية التي هزت العالم الإسلامي وانتصار صلاح الدين الأيوبي عليهم فسجلها ديوانه أعظم تسجيل. وأما الأدبية: فشعره لا تكلف فيه وصرف شعره في كل الأوجه من مديح وفخر ورثاء وشكوى وغزل.[١٨] وهو كان من أوائل الوشاحين الذي فهم فنية الموشحات جيدا. مع ذلك كانت موشحاته تماثل القصيدة التقليدية من الألفاظ والمعاني والتراكيب.

وجاء بعد الموصلي عبد الرحيم البيساني، المعروف بالقاضي الفاضل (٥٢٩-٥٩٦هـ)، أحد الأئمة الكتّاب، ووزير السلطان صلاح الدين الأيوبي، حيث قال فيه صلاح الدين "لا تظنوا أني فتحت البلاد بالعساكر إنما فتحتها بقلم القاضي الفاضل" وفي رواية- "لا تظنّوا أني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم القاضي الفاضل".[١٩] ولد القاضي الفاضل بمدينة "عسقلان " شمال غزة في فلسطين. وانتقل إلى الإسكندرية، ثم إلى القاهرة. كان يعمل كاتبا في دواوين الدولة ووزيرًا ومستشارًا للسلطان صلاح الدين لبلاغته وفصاحته. وقد برز القاضى الفاضل في صناعة الإنشاء، وفاق المتقدمين، وله فيه الغرائب مع الإكثار. قال عنه العماد الأصفهانى: "رَبُّ القلم والبيان واللسن اللسان، والقريحة الوقادة، والبصيرة النقادة، والبديهة المعجزة."[٢٠] وهو كان عالي الهمة كثير الاشتغال وافر العقل مع الرياسة التامة والإغضاء والصفح والحلم والستر، ومع كثرة أمواله كان مقتصدا في ملبسه وطعامه، وكان متقشفاً ورعاً كثير العبادة يواسي الناس ويخفف عنهم

ويقضي حوائجهم، فلم يبق في مدة حياته عملاً صالحاً إلا قدمه، فصنائعه كثيرة وأوقافه على طريق الخيرات لا يحوطها حصر ولا يضبطها حساب ولاسيما أوقافه لفكاك أسرى المسلمين، وقد بنى مدرسة للفقه وكُتَّاباً للأيتام، وغير ذلك كثير. كان القاضي الفاضل شاعراً، وشاحا، ناثراً، مكثراً ترك ديواناً شعرياً ضخماً ورسائل كثيرة جمع بعضها، وبعضها الآخر ما زال منثوراً في كتب التاريخ والأدب. فشعره فصيح الألفاظ متين التراكيب واضح المعاني مع شيء من الصنعة البديعية يحتوي على مدائح جيدة وفخر وغزل وإخوانيات وشيء من الحكمة والوصف.

وبتأثير القاضي الفاضل بدأ الشاعر ابن سناء الملك (٥٤٥–٦٠٨هـ، ١١٥٠– ١٢١٢م) أن يكتب الموشحة. وهو هبة الله بن جعفر بن سناء الملك أبي عبد الله محمد بن هبة الله السعدي، أبو القاسم، القاضي السعيد، شاعر، من النبلاء، مصري المولد والوفاة. كان وافر الفضل، رحب النادي، جيد الشعر، بديع الإنشاء. وهو شبّ في ظل أسرة عريقة، نعمت بالغنى والثروة، وجمعت معها الفضل والمعرفة، وترعرع في ظل أب يرعاه، ويهتم بتعليمه وتثقيفه، فأحفظه القرآن الكريم، ودرّسه اللغة والنحو. فجمع في نشأته الأولى بين علوم الفقه والدين واللغة. وكان مُلمّاً ببعض اللغات الأجنبية المنتشرة في تلك الحقبة، كاللغة الفارسية التي كان يتقنها وينشر بعض إنتاجه بها. ويستخدم بعض الخرجات الفارسية في موشحاته، كما كان ملماً بعلوم الفلك، حتى كثرت إشاراته لأسماء الكواكب والنجوم والأفلاك ومنازلها، وما يدور حولها من قصص وأساطير. ويأتي على رأس علاقات ابن سناء الملك مع علماء عصره علاقته بالقاضي الفاضل، فكانت بينهما مودة وتواصل بالرسائل. وقد استدعاه القاضي الفاضل إلى دمشق، ولكن حنينه إلى القاهرة أعاده سريعاً إلى مصر. وعلى الرغم من أن ابن سناء الملك أقام بمصر إلا أن شهرته الشعرية طبّقت الآفاق فَعُرف بين شعراء مصر وشعراء الشام. ومن مؤلفاته– *دار الطراز*، *في عمل الموشحات*، *فصوص الفصول*، جمع فيه طائفة من إنشاء كتاب عصره ولا سيما القاضي الفاضل، و *روح الحيوان* اختصر به الحيوان للجاحظ، *في غزوات الرسول*، صلى الله عليه

وسلم و*نظم الدر في نقدالشعر*.[٢١] وكانت شهرته الحقيقية في الموشحات، فهو أشهر من نظم فيها من المشارقة وأكثر وأجاد.[٢٢] وقد بلغ عدد موشحاته في كتابه دار الطراز ستة وثلاثين موشحا. بالإضافة إلى الجمع بين الفصحى والعامية تميزت موشحاته بتحرير الوزن والقافية وتوشيح، أى ترصيع، أبياتها بفنون صناعة النظم المختلفة من تقابل وتناظر واستعراض أوزان وقوافي جديدة تكسر ملل القصائد، وتبع ذلك أن تلحينها جاء أيضا مغايرا لتلحين القصيدة، فاللحن ينطوى على تغيرات الهدف منها الإكثار من التشكيل والتلوين. ولموشحاته موازين خاصة غير معتادة في القصائد وأشكال الغناء الأخرى. زاد على ذلك أنه كانت له مجالس تجري فيها المحاورات والمفاكهات التي يروق سماعها، وكانت داره إحدى المنتديات التي جمعت أسباب الترف واللهو. ولكنه كان على جانب كبير من الأخلاق الكريمة، فيها الاعتدال والورع والتقوى والشموخ والاعتداد بالنفس، أما مذهبه فقد قرر ابن سعيد بأنه كان مغالياً في التشيع، على حين قررّ آخرون من المؤرخين أنه كان سُنيّاً، والحديث في ذلك يطول.

وبعد ذلك جاء تاج الدين أبو الفتح عثمان بن عيسى بن منصور بن محمد البَلَطي (ت ٥٩٩هـ). كان إخباريا، شاعرا وعالما بفنون العربية، ولاسيما بالنحو والعروض. وهو كتب الموشح في مدح القاضي الفاضل. وكانت موشحاته مملوءة بالغرائب والبدائع ولكنه كتبها على طريقة المغارب. وكانت له تصنيفات كثيرة، منها– كتاب *العروض الكبير*، و *العروض الصغير*،و *العظات الموقظات*، *والنير في العربية*، و *أخبار المتنبئ*، و *المستزاد على المستجد من فعلات الأجواد*، و*علم أشكال الخط*، و *التصحيف والتحريف*، و *تعليل العبادات*. قال العماد في كتاب *الخريدة*– "وللبلطي موشحة عملها في القاضي الفاضل، بديعة مليحة سلك فيها طريق المغاربة وحافظ فيها على أحرف الغين والضاد والذال والظاء".[٢٣]

وكان أبو المكارم الأسعد بن المُهذّب (أو ابن الخَطير) بن مينا بن زكريا بن مَمّاتي (٥٤٤هـ/١١٤٩م- ٦٠٦هـ/١٢٠٩م) أيضا من أحد الوشاحين المشهورين في العصر الأيوبي. وهو كان كاتبا، شاعرا، إداريّا، ومؤرخا، مسلما، مصريا. يرجع أصله إلى أسرة (ممّاتي) النصرانية التي تبوأت منزلة رفيعة في عهد الدولة الفاطمية. وهي أسرة كانت تعيش في أسيوط ، ثم انتقلت إلى القاهرة للعمل في دواوين الدولة، إذ انفتح الفاطميون كثيراً على أهل الذمة وعينوهم في مناصب رفيعة. وقد تبوأ جد الأسعد (أبو المليح مينا) منصب مستوفي الدواوين ونال حظوة عند الفاطميين. أما أبوه (المهذب) فقد تولى رئاسة ديوان الجيش وأسلم أثناء ذلك. وكان الأسعد رئيساً لديواني الجيش والمال في عهد صلاح الدين، وعهدي ابنيه العزيز عثمان والمنصور محمد. كان الأسعد موسوعة في الأدب والفقه واللغة. وذكر ياقوت الحموي له ثلاثة وعشرين مؤلفاً في الفقه، والحديث، والتّراجم، واللغة،[٢٤] من أشهرها: *حجة الحق على الخلق في التحذير من سوء عاقبة الظلم*، *ونظم السيرة الصلاحية* في سيرة صلاح الدين الأيوبي، *الفاشوش* في حكم قراقوش، *الشيء بالشيء يُذكر*، *وباعث الجلد عند حادث الولد*، *وتلقين اليقين في الكلام على حديث بني الإسلام على خمس*، *وسر الشعر*، *وقوانين الدواوين*.

ومن الوشاحين الكبراء في العصر الأيوبي هو الشاعر كمال الدين علي بن محمد بن الحسن بن يوسف أبو الحسن(٥٦٠-٦١٩هـ). وكان معروفا بابن النبيه المصري. وهو شاعر منشئ من أهل مصر، مدح الأيوبيين وتولى ديوان الإنشاء للملك الأشرف موسى ورحل إلى نصيبين فسكنها وتوفي بها. ينتمى شعر ابن النبيه إلى مدرسة عرفت بمدرسة الرقة، وطريقتها التي عرفت بالطريقة الغرامية. وهذه المدرسة ظهرت في العصر العباسي وازدهرت في عصر الفاطميين والأيوبيين، وتتسم مدرسة الرقة بالألفاظ اللينة وبحور الشعر المجزوءة أو القصيرة. ولا يظهر في فنها أي لون من ألوان التكلف. وأكثر شعراء هذه

المدرسة من الغزليين، ولذا عرف مذهبهم في العصر الأيوبي بالطريقة الغرامية[٢٥]. نظم ابن النبيه موشحة في مدح موسى شاه أرمن ابن الملك العادل التي وردت في ديوانه.

وبعد ابن النبيه نجد وشاحا كبيرا مشرقيا آخرا في العصر الأيوبي، اسمه مظفر العيلاني الأعمى (٥٤٤–٦٢٣هـ). كان نحويا عروضيا أديبا شاعرا مجيدا، صنف في العروض مختصرا دل على حذقه فيه.[٢٦] وقال عنه عمر فروخ– "كان مظفر بن إبراهيم أديبا وشاعرا وعارفا بفنون الأدب والشعر والعروض. وشعره متين رائق رقيق".[٢٧] ثم جاء محمّد بن القاسم بن القاسم الو اسطي (٥٥٠–٦٢٦هـ) اشتهر القاسم الواسطيّ بأنّه كان ماهرا في القراءات حسن الصوت بعيد الصيت في الوعظ. وكانت له خطب و قصائد و موشّحات؛ له قصيدة في قراءات العشر، وله قصائد طوال و مقطّعات قصار؛ غير أنّه يجيد في المقطّعات. وعلى قصائده شيء من النفس الصوفيّ ومن الضعف.[٢٨] وكان في موشحاته انطلاق لفظي وخيالي، ولكنها كانت ضعيفة.

ثم نظم الموشحات في العصر الأيوبي هو الشاعر المبدع بلبل الغرام الحاجري. هو حسام الدين عيسى بن سنجر بن براهم الحاجري، شاعر رقيق الألفاظ حسن المعاني تركي الأصل من أهل إربل ينسب إلى بلدة حاجر من بلاد الحجاز، عندما غادر ابن خلكان ـ الذي كان أخوه صديقاً للحاجري ـ مدينة إربل في سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩ م كان الحاجري معتقلا في قلعتها. وعندما أطلق سراحه تزيا بزي الصوفية، وصار في خدمة مظفر الدين كوكبوري الذي ولاه صلاح الدين الأيوبي نائبا عنه في إربل سنة ٥٨٦ هـ / ١٠٩٠ م خلفا لأخيه زين الدين يوسف. وبعد موت مظفر الدين في عام ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م غادر الحاجري المدينة، ثم عاد إليها بعد ذلك مرة أخرى. قتل غدراً بأربل في سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٥ م. له عدة دواوين أشهرها *ديوان شعر*، ومسارح الغزلان الحاجرية، وبلبل الغرام الكاشف عن لثام الانسجام. وله عدة قصائد التي ذكرت في نزهة الناظر وشرح الخاطر. وكانت موشحته المشهورة هي "حافلة بالحنين الصوفي".

وبعد الحاجري جاء الوشاح شهاب الدين بن فضل الله العمري. هو أبو العباس شهاب الدين أحمد بن فضل الله بن يحيى بن أحمد العمري، وهُوّ من نسل عمر بن الخطاب، ويُنسب له بـالعُمري العدوي القرشي. كان مؤرخا وأديبا من أعيان المئة الثامنة. ولد في دمشق سنة ٧٠٠هـ، وتلقى بها تعليمه وبرع في الكتابة وفنونها والعلوم. وفي عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ذهب إلى القاهرة وتقلد رئاسة ديوان الإنشاء. وكان له الفضل في الكثير من الدراسات. وقد عني العمري بدراسة الجغرافية السياسية. ودرس تواريخ الأمم وعجائبها، ودرس الفلك، وتجول في البلاد من الشام إلى الحجاز والأناضول وغيرها من بلاد الأرض. وقد تبوأ العمري منزلة عظيمة، ونال حظوة لدى الملك الناصر. وتوفي العمري في القاهرة سنة ٧٤٩هـ قبل خمسين من عمره.[٢٩] ومن مؤلفاته– مسالك مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، فواضل السمر في فضائل آل عمر، يقظة الساهر، النبذة الكافية في معرفة الكتابة والقافية، نفحة الروض، الشتويات.

ثم سلك طريق ابن فضل الله أيدمر المحيوي (تـ ٦٧٤ هـ). هو أيدمر بن عبد الله التركي علم الدين المحيوي. كان شاعرا، له قصائد وموشحات جيدة السبك، تركي الأصل من الموالي أعتقه بمصر محي الدين محمد بن محمد بن ندى فنسب إليه. واشتهر في العصر الأيوبي ولقب بالإمارة. وكان من معاصري بهاء الدين زهير وجمال الدين بن مطروح. ونعته ابن شاكر بفخر الترك. بقي من شعره "مختار ديوانه" وكان له اشتغال بالحديث، وله شعر جيد. قال ابن سعيد المغربي في كتابه *المشرق في حلى المشرق* "بأي لفظ أصفه لو حشدت جيوش البلاغة لفضله لم أكن لأنصفه".[٣٠]

ثم جاء النصير الأدفوي (ت ٦٥٠هـ). قال كمال الدين جعفر – "لم أجد بأدفو من يعرف اسم أبيه وكان أديبا شاعرا ينظم الشعر وغير ذلك. وكان في أوائل المائة السادسة وأظنه مات بعد الخمسين وستمائة".[٣١] وبعده جاء الشاعر الوشاح ابن زيلاق الموصلي(٦٠٣– ٦٦٠هـ). وهو محي الدين يوسف بن يوسف بن سلامة بن إبراهيم الهاشمي الموصلي

الملقب بابن زيلاق. وهوعربي الأصل، ينتهي نسبه إلى العباس ابن عبد المطلب عم الرسول صلى الله عليه واله وسلم. وكانت ولادته في الموصل سنة ٦٠٣هـ. وهو قتل على يد هولاكو في العاشر من شعبان سنة ٦٦٠هـ لوقوفه ضده. وكان قبل وفاتة يعمل في كتابة الإنشاء في الدولة. وهو كان كثير التردد على بلاد الشام لاسيما على دمشق حيث حظيت دمشق أكثر من غيرها من المدن الإسلامية بقصائد شعرية في وصف مباهجها ومفاتنها. وكان أكثر أشعاره في الغزل العفيف وبعيد عن الفحش. وجاء في رسائله الواردة في فوات الوفيات الجزء الرابع ان نثره يجري على طريقة القاضي الفاضل التي تعتمد على البديع ولاسيما الجناس ،كما تعتمد على التنظير ويذكر قطب الدين اليونيني في ذيل مرآة الزمان الجزء الأول ان ابن زيلاق الموصلي شاعر لامع وناثر بارع ولكن حظه غير راجح.[٣٢]

الخصائص الموضوعية للموشحات المشرقية

وقد عرفنا من السابق بأن الموشحات المشرقية قد نشأت تعبيرا عن حالة اجتماعية معينة، كما نشأت نتيجة لحاجة الغناء إلى النصوص الشعرية. وإن الأندلسيين هم اخترعوا الموشحات وبذلوا جهودهم لتنميتها وتوسعوا في فنونها وأكثروا من أنواعها، حتى وصلت إلى صورتها المعروفة المشهورة. وإن المشارقة قد اعترفوها بفضل أهل الأندلس، ولكنهم أذاعوها ونشروها ووضعوا شروطها وقواعدها. كما ذكرت هذه القواعد والشروط في كتاب *"دار الطراز في عمل الموشحات"* للوشاح المشرقي ابن سناء الملك. وكانت بداية الموشحات المشرقية غامضة مثل حال الموشحات الأندلسية الابتدائية. وإن المشارقة نظموا موشحاتهم على صورة الموشحات الأندلسية الوافدة عليهم لسبب العلاقات العلمية والثقافية والتجارية العميقة التي كانت قائمة بين الأندلس والمشرق. هكذا أخذ المشارقة الموضوعة الأدبية الأندلسية الجديدة ورحبوا الموشحات الأندلسية ونظموا على منوالها. ثم انتشر الموشح في المشرق واشتهر. وفي البداية كان المشارقة يقلدون الموشح الأندسي. ثم بدأ الموشح المشرقي يتجه نحو الاستقلال حتى نرى أن وجوه الاختلاف كانت واضحة في جوانب كثيرة.

وكانت بداية نظم الموشح بدافع الغناء الذي كان متصلا بالبيئة الأندلسية. لذلك سيطرت موضوعات معينة على منظومة الموشحات الغنائية. وكان للطبيعة والبيئة الاجتماعية دور كبير في اتخاذ الغزل لموضوعات الموشحات. ويمكن أن يقال مثل الشيء عن الخمرية. وقد عرفنا أن الغاية الأساسية من فن الموشحات هي الغناء، لهذا كان من الطبيعي أن تنظم الموشحات بشكل كبير في الأغراض التي تناسب الغناء. وهذه الأغراض هي– الغزل، ووصف مجالس اللهو، والطّرب، والخمر، والمدح، والتهنئة، والرثاء، والزهد، والحنين، والحماسة، ووصف الطبيعة. هكذا جاء في الموشحات المشرقية أكثر موضوعات الشعر العربي. يقول ابن سناء الملك: "أن الموشحات يعمل فيها ما يعمل في أنواع الشعر من غزل ومديح ورثاء وهجو ومجون وزهد".[٣٣]

وكان بعض الوشاحين من المشرق ينظمون موشحاتهم في المدح لكسب المال في قصور الخلفاء والأمراء. وكانوا يقصدون بها مجالس الغناء ويحسبونها فرصة لإيصال مدحه إلى آذان الأمير عن طريق الغناء. فتزداد نشوة الممدوح، وهو في طربه فيزيد إغداقه وكرمه. وبعض الوشاحين يمدحون الحكام والأمراء لكن المديح كان ضعيف الشأن. ويظهر أن الموشحات خلقت لتصف حياة الدعة، والأنس، والهناء، ولا سيما عندما تتعرض لوصف الطبيعة بقصورها وألوانها وطيورها وبلابلها وأزهارها. كما ظهرت موشحات تتغنى بجمال المدن، وشملت موضوع الرّثاء والتصوف. وأما الزهد فقد جاء أخيرا في موضوعات الموشحات المشرقية لسبب اجتماع بعض الزهاد والمتصوفين والمتلذذين بذكر الله ومريديهم وأتباعهم في حلقات الذكر. ويظهر أمامنا أيضا بأن بعض الوشاحين كانوا يظهرون حبهم لأوطانهم بموشحاتهم. فالوشاح لم يكن همه البحث عن معنى مبتكر؛ إنما كان يبحث عن خلق أجواء الحب، وإثارة عواطف الحنين، وشطحات الخيال بعبارات ساذجة لينة تحيط بها موسيقى تصويرية حينا، ومرقصة لاهية حينا آخر تطرب لها الأرواح وتخلد لنوع من الطمأنينة والنشوة، والمرح. وغير ذلك كان من موضوعات الموشحات المشرقية

موضوع آخر، هو الحالة الاجتماعية التي يعيش فيها الوشاحون. وكانوا يقدمونها بلغة سهلة بسيطة وموسيقية. وكان الهزل أيضا من الموضوعات الرئيسية للموشحات المشرقية. كان الوشاحون لا يعالجون الأحوال الحربية التي شاعت في بلادهم، ولا يعالجون الخلافات المنتشرة بين ساداتهم، بل ينظمون الموشحات في مجال اللهو. وغير هذه الموضوعات قد دخلت في الموشحات المشرقية أغراض جديدة كالدعابة والفخر والإخوانيات والمديح النبوي والتصوف والاستغفار والمناجاة والوعظ.

ولقد تراوح عدد الأبيات في موشح المشرقيين ثلاثة وتسعة. وإن كانت هناك زيادات استثنائية، كما تبين أن هناك واحدا وخمسين موشحا مشرقيا يتألف كل منها من ستة أبيات، وتسعة وثلاثين موشحا مشرقيا يتألف كل موشح منها من سبعة أبيات. وجاء هذا الشكل لضيق مساحة الموشح. وهذا الشكل يؤثر على الموضوع الذي يطرقه الوشاح. ويكون ذلك على حساب الموضوع أو الموضوعات التي يتضمنها الموشح. وإن معظم الموشحات تتداخل فيها موضوعات عديدة، وإن كانت مساحتها ضيقة وعدد أبياتها قليلة مقارنة بالقصيدة العربية التقليدية. ومن حيث تناول الأفكار والمضامين يمكن تقسيم الموشحات المشرقية إلى ثلاثة أقسام–

أ) موشحات التزم أصحابها بموضوع واحد وهو غرض الموشح الذي نظم من أجله سواء أكان في الغزل أم في المديح أم في غير ذلك. وذكر موضوع واحد في الموشح يعطي الوشاح فرصة أكبر لمعالجة موضوعه من حيث التعبير واللجوء إلى التفاصيل.

ب) موشحات أدخل فيها أصحابها موضوعا آخر إضافة إلى غرض الموشح الرئيس. فجاءت مؤلفة من موضوعين كالغزل والخمر أو الغزل والمديح إلى غير ذلك. كما نجد في موشح الصفدي حيث ذكر الوشاح موضوعي الغزل والمديح معا. وقسم أبياته التسعة إلى قسمين: الأبيات الأربعة الأولى في الغزل والأبيات اللاحقة في المديح.[٣٤]

ج) موشحات متعددة المضامين– قام أصحابها بتناول بموضوعات مختلفة في الموشح الواحد، مثل ذكر الطبيعة والخمر مع موضوع الغزل على سبيل المثال.

وفيما يلي نماذج من الموشحات أُنشئت في الأغراض المذكورة، يمكن أن تلقي الضّوء على مضامينها وما اشتملت عليه من معان وصور فنية لدى كبار الشعراء الوشّاحين في المشرق في العصر الأيوبي.

الغزل

الغزل هو التغني بالجمال، وإظهار الشوق إليه، والشكوى من فراقه. وهو فنٌ شعري يهدف إلى وصف الحبيبة والتّشبّب بها وإبراز محاسنها. وهو من الأغراض القديمة للشعر العربي منذ بدايته في العصر الجاهلي حتى إلى العصر الحديث. وله أهمية كبيرة في الشعر العربي. والموشحات نوع من أنواع الشعر، لهذا تأثرت الموشحات الغزلية تأثرا كبيرا بهذا التراث العربي القديم. ولعب هذا الموضوع دورا هاما في الموشحات الأندلسية أيضا. وهذا الموضوع أخذ الإمامة على الموضوعات الأخرى في الموشحات المشرقية. في الغزل أتى الوشاحون بالتشبيهات كالبدر والشهب والشمس والظبي التي يصف بها الشاعر محبوبه. كما أظهر الشاعر فيه أثر الحوادث الجديدة التي عاش فيها. قال ابن سناء الملك–

يا لايم. طال في ربع حبيبي وقوفي وعليه عكوفي
لايمي كن صموتا وأنلني سكوتا
واجتنبها بيوتا رح لئلا تموتا
بصارم. سل من كسرة جفن ضعيف قطاع للسيوف.[٣٥]

في البيت الأول وقف الشاعر في ربع الحبيبة الذي يشير إلى معنى تقليدي قديم. لكن هنا يعبر الشاعر بهذا عن حالة قلوب المحب الذي لا ينال من محبوبه شيئا إلا رؤية حجارة بيوت حبيبته. وتظهر هذه الأبيات بأن بيوت المحبوبة لم تعد محمية بسيوف رجال عشيرتها الغيورين، وإنما هي محمية بسيوف عيني المحبوبة ذاتها، ولا شك أن في هذا المعنى شيئا من الجدة.[٣٦]

وصف الطبيعة :

الطبيعة هي كل العناصر الموجودة في محيط الإنسان من صنع الله وبدون أي تدخلاتٍ بشرية. هذا الموضوع أيضا من الموضوعات المشهورة القديمة والحديثة معا. كذلك نجده في الموشحات المشرقية أيضا. والوشاحون المشارقة قد وصفوا بموشحاتهم جمال الشام ومصر وغير ذلك من البلدان العربية وبساتينها وأشجارها ومياهها وثمارها وأزهارها. كما نرى في كتاب *حلبة الكميت* للنواجي و *ثمار القلوب* للثعالبي.[٣٧] وتأثر الوشاحون المشارقة تأثرا شديدا بالأحداث المنتشرة في بلاد العرب. لهذا لم يجدوا فرصة للالتحام مع الطبيعة. فوصفوا الطبيعة وصفا تقليديا غير شعوري حقيقي. وعدد الموشحات التي نظمت في وصف الطبيعة قليل. ومن هذا العدد القليل موشحح ابن سناء الملك فيقول فيها–

وساح في أفق الغسق نهر النهار
وفت كافور الصباح مسك السماء
وفاح من نشر الأقاح نشر الكباء
وهب من جسم الرياح مثل الهباء.[٣٨]

الخمر

هذا الموضوع أيضا من الموضوعات الشعرية القديمة المشهورة. وجاء هذا الفن بالالتصاق مع موضوع الغزل في الموشحات المشرقية. بدأ الشاعر بموضوع الخمر، ثم انتقل إلى موضوع الغزل. حتى جمع الوشاحون المشارقة في موشحاتهم المغن والمحبوب والخمر معا. فبعضهم دعوا لشرب الخمر في الرياض الجميلة بيد ساق كالبدر، وندامي كالنجوم المشرقة، مع سماع صوت الأوتار القاضية على الأحزان. وكان الشعراء الوشاحون المشارقة يقلدون من سبقهم من خلال حديثهم عن الخمرة، وكانت ألفاظهم لا تخرج عما أتى به من سبقهم إلا فيما ندر. كما ذكر محيي الدين بن زيلاق الموصلي–

حث شمس الكؤوس يا بدر فالندامي نجوم
واسقينيها كأنها تبر من بنات الكروم

ضحكت في ثغورها الزهر ببكاء الغيوم
وتغنت بأطيب اللحن صادحات الشجر.[٣٩]

المدح

المدح هو حسن الثناء على المرء لصفاته الحسنة. وهو ذكر المحاسن والجمال. ويكون المدح بذكر الجميل الاختياري وغير الاختياري. وهو من أهم الأغراض الشعرية. وإن الإعجاب بالممدوح والرغبة في العطاء تدفعان الشاعر إلى إتقان هذا الفن من القول. فيسعى الشاعر إلى حسن الشكر والثناء بأشعارهم. وقد يكون المديح وسيلة للكسب. والصفات التي يمدح بها الممدوح هي- الكرم و الشجاعة، ومساعدة المحتاج والعفو عند المقدرة، وحماية الجار. وموضوع المدح ما جاء منفردا في الموشحات المشرقية، بل جاء ملتصقا بالموضوعات الأخرى مثل الغزل ووصف الطبيعة والخمر. بدأ الوشاح موشحاته بهذه الأغراض المشهورة ثم انتقل المديح. وهذا نادر في الموشحات المشرقية أن يبدأ الشاعر موشحه بالمديح وينتهي به فقط، بل جمع معه الأغراض الأخرى. وكان المديح في الموشحات المشرقية أطول بالمقارنة مع الموشحات الأندلسية. ومدح الشاعر ممدوحه بذكر خصائصه الأخلاقية مثل وصف الفضل والكرم والعلم والزهد والحلم والطهر والصدق. كما نجدها في موشح عثمان بن عيسى البلطي التي يمدح فيها القاضي الفاضل-

الفاضل الأشهر بالعلم والزهد
والطاهر المئزر والصادق الوعد
وكيف لا أشكر مولى له عندي
نعمى لها إسباغ صائنة عرضي
من كف كاس غاد والدهر ذو عظ.[٤٠]

وللبلطي موشح مدحي عملها في القاضي الفاضل بديعة مليحة سلك فيها طريق المغاربة وحافظ فيها على أحرف الغين والضاد والذال والظاء. وهي-

ويلاه من رواغ بجوره يقضي

ظبي بني يزداد منه الجفا حظي
قد زاد وسواسي مذ زاد في التيه
لم يبق في الناس ما أنا لاقيه
من قيم قاسي بالهجر يغريه
أروم إيناسي به ويثنيه
إذا وصال ساغ بقربه يرضي
أبعده الأستاذ لا حيط بالحفظ.[٤١]

الزهد

معنى الزهد هو الرخيص والقليل والحقير. وهو ضد الرغبة والحرص على الدنيا، والنظر إلى الدنيا بعين الزوال. وهو عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف، وقصر الأمل. والمزهد هو الذي ليس عنده شيء من الدنيا. وكان الزهد أيضا من الموضوعات الشعرية العربية القديمة. وكثير من الوشاحين المشارقة نظموا موشحاتهم في هذا الموضوع. وكان أولهم هو ابن سناء الملك. وهو ختم ديوانه "دار الطراز" بموشح في هذا الموضوع. ثم نظم الموشح في هذا الموضوع هو ابن عربي الذي انتقل من الأندلس إلى المشرق. ونهى ابن سناء قلبه في موشح الزهد عن الاغترار بجمال الحياة الدنيا المزيف، وعن طلب وصلها، تلك الدنيا العاقة التي تمنح الجاهل وتمنع العاقل. ونرى فيها إظهار الإيمان الحقيقي والقانعة الراسخة. كما قال–

أين الذي قد بني وقد شيد أين الذي لامس السهو باليد
أين الذي ظن ملكه سرمد وظن أن لا يفني ولا ينفد
فأنقذ الله فيه للوقت . حكما
فصيروا من عليه في الموت. ردما[٤٢]

وذكرنا أن موضوع الزهد جاء في الموشح المشرقي متأخرا للحاجة إليه لمواكبة مجموعات المنشدين في حلقات الذكر. وهذا الموشح يناسب الذكر والذاكرين. كما نجد هذا الحال في موشح محي الدين ابن العربي (ت ١٢٤٠م) وهو يقول–

جنان يا جنان اجن من البستان الياسمين
وخل ذا الريحان بحرمة الرحمن للعاشقين[٤٣]

وبعض الموشحات الزهدية تغني وتنشد أثناء الطريق لتأدية فرضية الحج. كما قيل–

لأحمد المصطفي مقام
جل على فلا يرام
بنوره يهتدي الأنام
فأي شمس وأي بدر قد أطلعته لنا السعود.[٤٤]

الرثاء

الرثاء هو ذكر خصال الميت بما كان يتصف به من صفات– كالكرم والشجاعة والعفة والعدل والعقل ونصرة المظلوم. وهو التفجع على الميت والتأسّي والتعزّي. وقِوام القصيدة الرثائية بنيةٌ تتألف ـ في الأغلب الأعم ـ من عناصر أربعة، هي– الاستهلال والتفجع والتأبين ويكون بتعداد خصال الميت والتأسّي والتعزّي. وهو أيضا من الأغراض القديمة. موضوع الرثاء دخل في الموشحات المشرقية قبل دخولها في الموشحات الأندلسية. لكن موضوع الرثاء كان أقل انتشارا في الموشح المشرقي. والوشاح المشرقي فيها هو ابن سناء الملك. وهو أظهر بها شديد الحزن على أمه حيث قال–

حزني على أمي حزن شديد
تبكي الليالي وهو غض جديد
فقل لنار القلب هل من مزيد
غلطت دع دهري وما قد نواه فهل عساه
يأتي إلا دون ما قد أتاه.[٤٥]

ويرثى ابن سناء الملك أيضا قريبين له قتلا أثناء الرحلة إلى المغرب حيث قال–

سررت أنت ولكني أنا حزني مخلد[٤٦]

الهجاء

الهجاء هو نوع من الشعر نقيض المديح يُكتب عندما يريد الشاعر أن يعبر عن سخطه واشمئزازه من شخص آخر. وهو عكس المديح فالمديح يقوم على عاطفة الإعجاب والتقدير وذكر المناقب أما الهجاء فيقوم على ذكر السُخط والاشمئزاز وذكر المثالب.[٤٧] والهدف المشترك المتمثل في هجاء عادة ما يعني أن يكون مضحكا، ولكن الغرض منه هو أكبر كثيرا لانتقادات بناءة الاجتماعية. وذلك باستخدام الطرافة كسلاح. وكذلك يستعمل عندما نريد ذكر مساوئ المواقف. وأما موضوع الهجاء في الموشحات المشرقية فلم يكن حظه أفضل من الرثاء من حيث العدد. لأن طبيعة الموشح كانت تناسب موضوعات معينة مع استخدام البحور القصيرة. وحتى البحور الطويلة كانت تجزء لتناسب بناء الموشح في أجزائه وأقسامه. وهذا واضح بأن لغة الموشحات كانت تتسم بالسهولة والوضوح والبعد عن الوحشي والغريب فتطرق الأسماع بيسر وليونة. وإن السهولة والليونة في مفردات الموشحات لا تناسب موضوعات مثل وصف الحرب والقتال والهجاء. لهذا كان الهجاء نادرا في الموشحات سواء كانت أندلسية أم مشرقية.

الحنين

الحنين هو الإحساس الملموس والمعنوي في نفس الوقت. وهو تلك اللحظة التي يشعر الناس فيها أثناء تذكرهم ما قد ضاعوا منه أو افتقدوه بألم بالقلب لا يضاهيه أي ألم. وهو إحساس ببكاء قلب قبل عينين. ولا يحدث الحنين عند شعور بفقد وضياع حب فقط، بل هناك أنواع كثيرة من الحنين. كحنين للوطن إن غاب أحد عنه، وحنين للأبناء، وحنين لمن رحلوا عن الدنيا. وهو مرتبة أعلى من الأشواق. وهذا الموضوع جاء في الموشحات المشرقية بالالتصاق مع الغزل والزهد. كما قال الوشاح الحاجري–

سلام على أهل تلك الخيام

فهم سول سولي وأقصى المرام
بحق الهوى يا نسيم الخزان
على رسم دارهم عرج وحي لنا ربة الهودج.[٤٨]

الخاتمة

قدمت في هذا البحث بيانا على الموشح المشرقي في العصر الأيوبي من الناحية الموضوعية. وأيضا تناولت هذه الدراسة أبرز الوشاحين في العصر الأيوبي. وقد تطور الشكل الفني للموشحات في العصر الأيوبي، فكانت هناك الألفاظ والتعبيرات الجديدة. وقد استطاع الوشاحون إضافة كثير من اللمسات الإبداعية على الصور التي تضفي الجمال على موشحاتهم. ونظمت الموشحات المشرقية في العصر الأيوبي في أكثر أغراض الشعر المعروفة مثل : الوصف والغزل والمدح والرثاء والزهد ووصف مجالس اللّهو والطّرب أو وصف الطبيعة والتصوف. وإن الموشحات نشأت في خدمة الغناء، فقد كان من الطبيعي أن تنظم بكثرة في الأغراض التي تناسب هذا الفن. ثم ما لبثت الموشحات أن ظهرت في مجال المديح بغية التكسب، لأن قصور الخلفاء والأمراء كثيراً ما كانت تضم مجالس الغناء والسمر فيجد بها بعض الشعراء الوشّاحين فرصة للوصول إلى الأمراء ونيل عطائهم. كما ظهرت موشحات تتغنى بجمال المدن والتشوق إليها. وكانت هناك جوانب تقليدية في بعض الموشحات المشرقية الأيوبية. كما كانت هنالك بعض العيوب الفنية إلى جانب كثير من الملامح الجيدة والجميلة التي لا يمكن إنكارها.

المراجع والمصادر

١. ابن منظور، *لسان العرب* (بيروت، ٢٠٠٣ م)، ج ١٥، ص ٢١٧

٢. ابن سناء الملك، *دار الطراز في عمل الموشحات* (دمشق: دار الفكر، ١٩٨٠م)، ط. ١، ص. ٣٢

٣. رضا محسن القريشي، *الموشحات العراقية منذ نشاتها إلى نهاية القرن التاسع عشر* (بغداد: وزارة الثقافة والإعلام ، ١٩٨١م) ، ص ١٠٩

٤. ابن خلقان، *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان*، تحقيق د. إحسان عباس (بيروت: دار صادر، ١٩٧٢م)، ج.٤، ص.٤٣٦

٥. أحمد بن محمد المقري التلمساني، *نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب*، تحقيق يوسف بن الشيخ محمد البقاعي (دار الفكر للطباعة والنشر، ١٩٨٦م)، ج ٩، ص ٢٤١

٦. مصطفي السقا، *المختار من الموشحات*، تحقيق حسين نصار الهيئة العامة لقصور الثقافة (مصر : ٢٠٠٨ م)، ص ٣٨

٧. ابن سناء الملك، *دار الطراز في عمل الموشحات*، المصدر السابق، ص. ٣٢

٨. محمد زغلول سلام، *الأدب في العصر المملوكي* (مصر: دار المعارف، ١٩٧٠م)، ج١، ص٣٠٦

٩. الكريم، مصطفي عوض، *فن التشويح* (بيروت: دار الثقافة، ١٩٥٩م)، ص ٤٥–٤٦

١٠. شغف صالح عبد الحي (1962 – 1896) فارس الغناء التقليدي فنان مصري من أعلام الغناء الشرقي الأصيل بالاستماع للموشحات من تلك الفئة التي كان يطلق عليها لفظ الصهبجية وهم صحبة كانت تحيي الحفلات الساهرة حتى مطلع الفجر. وكان كل منهم له صنعته في الصباح، فمن أسمائهم يبين أنهم هواة، لهم حرفتهم البعيدة عن الفن أصلا. (صالح عبد الحي/https://ar.wikipedia.org/wiki)

١١. يطلق مصطلح السلاجقة على مؤسسى الدولة السلجوقية وهى من أهم الدول الإسلامية التي ظهرت على مسرح التاريخ لأنها وجهت سير الأحداث في المنطقة المعروفة الآن بالشرق الأوسط واشتبكت في قتال مع الغرب النصراني ممثلا في الدولة الرومانية الأمر الذي أدى إلى قيام الحروب الصليبية مما كان له أثره في تاريخ الشرق والغرب على السواء. وهم مجموعة من القبائل التركية تنتمى في الأصل إلى طائفة "الأوغوز" استقرت في إقليم ما وراء النهر في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجريين بعد أن أسلمت وحسن إسلامها. ثم انتقلت بعد سنوات قليلة إلى خراسان وكونت جيشا قويا تمكنت به من دخول مدينة نيسابور في عام (٤٢٩ هـ 1027م) فأعلن زعيمها طغرل بك قيام دولة السلاجقة ونادى بنفسه سلطانا على هذه الدولة. ولقد نقل العرب المسلمون إلى أهل تلك البلاد نعمة الإسلام مما ساعد على انتشار الإسلام في تلك البلاد. وأدى إلى امتزاج الدماء وإلى انتشار اللغة العربية– لغة الدين الحنيف– التى نزل بها القرآن الكريم وقيلت بها الأحاديث النبوية الشريفة. وصار تعلمها لازما لكل مسلم غيرعربى حتى يستطيع تعلم أصول دينه. وكان إسلام الترك نقطة تحول في تاريخهم فقد أزال الحاجز بينهم وبين المسلمين، كما أزال الحاجز بينهم وبين التاريخ

العالى، فيّسر لهم العيش في حياة المسلمين والدخول في خدمة خلفاء المسلمين وسلاطينهم وأمرائهم وقوادهم. ثم واتتهم الفرصة لإقامة دولة تركية مسلمة مجاهدة. وكان قيام دولة السلاجقة حدثا بارزا في تاريخ إيران والعراق بخاصة، وفي تاريخ العالم الإسلامى بعامة. وكانت موقعة (داندا نقان) (٤٣١ هـ 1029م) من المواقع الحاسمة الفاصلة في تاريخ كل من الغزنويين والسلاجقة لأنها كانت موجهة لتاريخ كل من الدولتين. ولقد أدى انتصار السلاجقة إلى ظفرهم بمغانم كثيرة مادية ومعنوية، فأحكموا بعدها سيطرتهم على خراسان وما وراء النهر، وظفروا باعتراف الخليفة العباسى وقيام دولتهم وأخذوا يستعدون لبسط سلطانهم على إيران والعراق والشام. (ا. د. عبدالنعيم حسنين، *إيران والعراق في العصر السلجوقى* (القاهرة : دار الكتاب المصرى، ١٩٨٢، م)

١٢. الصليبيون هم جيوش من نصارَى أوربة، غزت الشرق الإسلامي مراراً في أثناءِ القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر الميلادية؛ بدعوى تخليص بيت المقدس وما حوله . (*المعجم الوسيط*، القاهرة، ١٩٦٠م، ص ٥١٩

١٣. الملك الناصر أبو المظفر صلاح الدين والدنيا يوسف بن أيوب بن شاذي بن مروان بن يعقوب الدُويني التكريتي (589 – 532هـ / 1138- 1193 م)، المشهور بلقب صلاح الدين الأيوبي، قائد عسكري أسس الدولة الأيوبية التي وحدت مصر والشام والحجاز وتهامة واليمن في ظل الراية العباسية، بعد أن قضى على الخلافة الفاطمية التي استمرت ٢٦٢ سنة. قاد صلاح الدين عدة حملات ومعارك ضد الفرنجة وغيرهم من الصليبيين الأوروبيين في سبيل استعادة الأراضي المقدسة التي كان الصليبيون قد استولوا عليها في أواخر القرن الحادي عشر، وقد تمكن في نهاية المطاف من استعادة معظم أراضي فلسطين ولبنان بما فيها مدينة القدس، بعد أن هزم جيش بيت المقدس هزيمة منكرة في معركة حطين(https://ar.wikipedia.org/wiki/_الأيوبي (صلاح الدين)

١٤. البيمارستان كلمة تعني مستشفي أصلها فارسي ومعناها «محل المريض». كانت للبيمارستانات في العصور الوسطى دورا للعلاج وكانت أيضا معاهد لتدريس الطب .واستعمل العثمانيون كلمة دار الشفاء.وكانت البيمارستانات مستشفيات عامة تعالج فيها الأمراض الباطنية والرمدية والعقلية وتمارس فيها العمليات الجراحية، يتم العلاج فيها عن طريق طاقم طبي متخصص. كان الأطباء المسلمين هم أول من فرق بين المستشفي العام ودور العجزة والمصحات التي تعزل فيها المجانين وأصحاب الأمراض الخطيرة مثل الجذام. ويعتبر البيمارستان هو الأساس الحقيقي للمستشفيات المعاصرة. ويرجع الفضل في تأسيس المصحات النفسية والمستشفيات العامة والمدارس والجامعات

الطبية للأطباء المسلمين في العصور الوسطى، إلى أن تدهورت أحوالها وأهملت وهجرها المرضى فما عادت تستخدم إلا لعزل المجانين، وصارت كلمة مارستان/مورستان تعني مأوى المجانين. (https://ar.wikipedia.org/wiki/البيمارستانات)

١٥. د. سعيد عاشور، *بحوث ودراسات في العصور الوسطى* (بيروت: دار الأجد، ١٩٧٧م)،ص. ٥٠–٥٢

١٦. عمر فروخ، *تاريخ الأدب العربي* (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨١م)،ط. ٣، ج٣، ص ٢٦٧

١٧. الدكتورة مجد الأفندي، *الوشحات المشرقية وأثر الأندلس فيها* (دمشق : دار الفكر، ١٩٩٩م)، ص٥٥

١٨. وفيات الأعيان، المصدر السابق، ج٣، ص٥٧

١٩. المصدر السابق، ص ١٥٩

٢٠. منير البعلبكي، *القاضي الفاضل موسوعة المورد* (موسوعة شبكة المعرفة الريفية،١٩٩١م) ص ٥٧ .

٢١. http://shamela.ws/index.php/author/809

٢٢. عمر فروخ، المصدر السابق، ج٣، ص ٤٥١

٢٣. الدكتورة مجد الأفندي، *الوشحات المشرقية وأثر الأندلس فيها* ، ص ٥٩

٢٤. ياقوت الحموي، معجم الأدباء (بيروت: دار المستشرق، بلا تاريخ)، ج٦، ص ١٠٠–١٢٦.

٢٥. خير الدين الزركلي، *الأعلام* (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨١م)، ج٥، ص ١٥٢

٢٦. ياقوت الحموي، *معجم الأدباء*، المصدر السابق، ص ١٤٨

٢٧. عمر فروخ، *تاريخ الأدب العربي*، المصدر السابق، ج٣، ص٤٨٣

٢٨. http://almerja.com/reading.php?i=4&ida=575&id=556&idm=36076

٢٩. خير الدين الزركلي، *الأعلام* ، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٦٨

٣٠. الدكتورة مجد الأفندي، *الوشحات المشرقية وأثر الأندلس فيها* ، المصدر السابق، ص ٧٤.

٣١. ابن شاكر الكتبي، *فوات الوفيات* ، ، تحقيق د. إحسان عباس(بيروت : دار صادر، بلا تاريخ)، ج٤، ص٢٢٠

٣٢. فوات الوفيات، المصدر السابق، ج٤، ص٣٨٤

٣٣. ابن سناء الملك، *دار الطراز في عمل الموشحات*، المصدر السابق، ط. ١، ص. ٧٨

٣٤. صلاح الدين الصفدي، *توشيع التوشيح* (دار الفكر للطباعة والنشر، ١٩٨٩م)، ص ١٦١

٣٥. ابن سناء الملك، *دار الطراز في عمل الموشحات*، المصدر السابق، ط. ١، ص. ١٥٨

٣٦. الدكتورة مجد الأفندي، *الموشحات المشرقية وأثر الأندلس فيها*، المصدر السابق، ص ٨١

٣٧. المصدر السابق، ص ٩١

٣٨. خريدة القصر، قسم شعراء مصر ،ج ١، ص٨٢

٣٩. فوات الوفيات، المصدر السابق، ج٤، ص٣٩٢

٤٠. المصدر السابق، ج٢، ص٤٤٥

٤١. المصدر السابق، ج٢، ص ٤٤٤

٤٢. ابن سناء الملك، *دار الطراز في عمل الموشحات* المصدر السابق، ط. ١، ص.١٧٧

٤٣. أحمد المقري، *نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب*، المصدر السابق، ج٢، ص٣٨

٤٤. أبو حسن علي الششتري، *ديوان*، تحقيق علي النشار (الاسكندرية، ١٩٦٠م)، ص ٢٤٠

٤٥. العماد الأصبهاني، *خريدة القصر وجريدة العصر* (دمشق : مجمع اللغة العربية ١٩٦٨م)،ج ١، ص ٨٤

٤٦. محمد بن عبد الرحمن السخاوي، *الضوء اللامع لأهل القرن التاسع* (القاهرة: مكتبة القدسي، ١٣٥٥هـ)، ج٢، ص٤٥

٤٧. الهجاء (https://ar.wikipedia.org/wiki/

٤٨. رضا محسن القريشي، *الموشحات العراقية منذ نشأتها إلى نهاية القرن التاسع عشر* (دار الرشيد للنشر الجمهورية العراقية، ١٩٨١م)، ص٣٥٣